

علم الاجتماع في المجتمعات العربية - بين الجامعة والمجتمع -

## Sociology in Arab Societies

- Between the university and the society.

د. أسماء بن تركي ، جامعة محمد خيضر - بسكرة

د. لامية بوبيدي، جامعة الوادي - الجزائر

الملخص:

علم الاجتماع كتخصص علمي كانت أهم عوامل ظهوره في فرنسا البحث عن حل للفوضى الاجتماعية التي عانى منها المجتمع الفرنسي، فظهر علم جديد قائم بذاته يبحث عن حلول لواقع اجتماعي تتخبط فيه أوروبا، علم له أسسه ومبادئه النظرية والتطبيقية ليحقق هدفه الذي أوجد من أجله. علم الاجتماع في الجامعة العربية تم استيراده مثله مثل بقية العلوم الأخرى وهو ما طرح العديد من الإشكالات النظرية والتطبيقية لهذا العلم في الجامعة والمجتمعات العربية.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع، المجتمع، المجتمعات العربية، الجامعة.

## Abstract

Seeking solutions to social disorder in the French community was the most important factors that gave rise to sociology as a discipline in French. A new, self-evident science emerged seeking solutions to a social reality in which Europe was floundering. This science has its own theoretical and applied principles to achieve its designed objective. In the Arabian University, Sociology has been imported like the rest of the other sciences, which put forward many of the theoretical and applied problems of this science in the university and Arab societies.

**Key words:** sociology; society; arabic societies; university.

#### مقدمة

يتفق غالبية علماء الاجتماع على أن هذا العلم لا يزال في طور التكون والنمو، رغم تجاوزه القرن من الزمان لم يأخذ بعد صورته النهائية، فحسب روبرت ميرتون فإنه: "يوجد

في الولايات المتحدة خمسة آلاف عالم اجتماع، لكل منهم علم الاجتماع الخاص به" وبنفس الاتجاه يقول ريمون آرون: "يتميز علم الاجتماع في الواقع بالبحث الدائم عن نفسه، ويتفق علماء الاجتماع كلهم، على نقطة واحدة فقط، هي صعوبة تحديد علم الاجتماع"، في مجتمعاتنا العربية تم استيراد علم الاجتماع كغيره من العلوم الأخرى، دون مراعات لخصوصية هذا العلم في الطرح والمعالجة، ولا مراعات حتى المشكلات التي يعاني منها هذا التخصص العلمي في مكان نشوئه، وهو ما يجعلنا نتساءل في هذه الورقة: هل المشكلات النظرية والتطبيقية التي يعاني منها علم الاجتماع هي نتيجة الظروف الاجتماعية المحيطة بالبيئة التعليمية لهذا العلم؟ وهل هذا العلم يحتاج إلى ظروف خاصة ليتطور في الجامعات العربية كما تطور في المجتمعات الأوروبية؟

## 1. علم الاجتماع عند الغرب

العلم أيًا كان موضوعه عبارة عن نشاط إنساني مستهدف ومقصود، وهذا يعني ارتباطه بالسياق المجتمعي وتأثره بالمؤثرات التي تحدد النشاط الإنساني زمانيا ومكانيا، الأمر الذي جعل هذه الوظيفة الاجتماعية متباينة بين فترة وأخرى، وبين مجتمع وآخر بل وتباين الموقع الطبقي الاجتماعي الذي ينتمي إليه الباحث وينظر من خلاله إلى الواقع الاجتماعي.<sup>1</sup>

وبالنسبة لعلم الاجتماع فهناك تباينات كثيرة ارتبطت بتحديد العلم وموضوعه، هذه التباينات فرضتها طبيعة العلم في نشأته وتطوره بجميع الأطر المجتمعية والفكرية التي أحاطت به، بما في ذلك الدين والفلسفة والعلوم الطبيعية، كما تأثر بطبيعة التغيرات التي طرأت ولا تزال تواصل تأثيرها على المجتمع الإنساني، وبمجملة الظروف الاجتماعية والثقافية التي أحاطت بكل رائد من رواد العلم وجعلته يرتبط بمجتمع دون غيره، زد على هذا حالة المنهج العلمي في كل فترة من الفترات التي مر بها العلم، ورغم هذه التباينات فإن ثمة نقاط أساسية تمثل ولو هيكلًا عامًا يتحرك من خلاله علم الاجتماع ويتحدد به موضوعه الأساسي، وهو هيكل يشير إلى أن علم الاجتماع هو علم دراسة الإنسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمي، وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث فهو إذن يدرس المجتمع ككل في ثباته وتغيره ويدرس الإنسان من خلال علاقته بالمجتمع<sup>2</sup>.

من العوامل التي ساهمت في ظهور علم الاجتماع في الغرب وفي أوروبا تحديداً الظروف الاجتماعية السيئة والتغيرات الواسعة، التي حدثت نتيجة سير هذه المجتمعات في طريق التصنيع وما ترتب على ذلك من ظهور مشكلات اجتماعية متعددة، كانفصال الناس عن أسرهم لساعات طويلة من اليوم والازدحام وسوء الأحوال السكنية وغيرها من الظروف التي مهدت لظهور هذا العلم.<sup>3</sup> إذ يذهب الكثير من مؤرخي الفكر الاجتماعي

إلى أن البناء الحالي لعلم الاجتماع إنما يرجع بصورة أو بأخرى للأنساق الفكرية التي صاغها رواد مبكرون مثل باريتو ودوركايم وفيبر<sup>4</sup>.

فعلم الاجتماع بدأ في الظهور كعلم مستقل منذ منتصف القرن 19 وبدأت تظهر فكرة القوانين الوضعية والشعور بأن الظواهر الاجتماعية كغيرها من الظواهر تخضع لقوانين تنظم سيرها وتطورها، وقد أخذ هذا الاتجاه العلمي يقوى شيئاً فشيئاً محاولاً التغلب على الاتجاهات الفلسفية والغائية حتى استطاع أن يتغلب عليها في نهاية القرن 19، وحقق تقدماً خلال النصف الأول من القرن 20 على يد كثير من العلماء الاجتماعيين أمثال هربرت سبنسر في إنجلترا وإميل دوركايم في فرنسا وماكس فيبر في ألمانيا وغيرهم<sup>5</sup>.

فولادة علم الاجتماع لم تكن من خارج الأحداث والمعطيات، وإنما كانت تعبيرا عن أكثر من حدث سياسي واجتماعي، فنظرية العقد الاجتماعي، لم تكن لتظهر للوجود لولا انهيار القيم والمعتقدات والسلوك بفعل انهيار القيم والمعتقدات والسلوك بفعل انهيار الكنيسة الكاثوليكية بعد انتصار الثورة البروتستانتية، إضافة إلى ظهور اتجاهات فكرية بفعل هذه الثورة التي كانت بمثابة مدخل إلى تحقيق حرية الإنسان ومبدأ المساواة<sup>6</sup>.

ففي العالم الغربي كان ظهور الثورة الصناعية سببا في انتشار التنظيمات البيروقراطية المرتبطة بالظاهرة الصناعية، حيث امتلك الإنسان القدرة على مواجهة الأزمات والتحديات، وتحول النسق الاجتماعي إلى قوة كبيرة للسيطرة على الإنسان من حيث

السلوك والتفاعل والعلاقات، هذه الأزمات والثورات وكل الوقائع كانت الدافع لبلورة الفكر الاجتماعي، وإلى قيام علم الاجتماع القادر على حل المشكلات الاجتماعية، كما كان نشوء علم الاجتماع في أوروبا بمثابة رد فعل للأزمات الاجتماعية وعامل تأثير على اهتمام مفكري أوروبا الاجتماعيين بالسياسة والاقتصاد والرأي العام، وربما كان الوصف صحيحا عندما وصف علم الاجتماع بأنه علم الأزمات، باعتبار خروجه من وسط الأزمات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي صاحبت اختفاء النظام القديم وظهور الرأسمالية الصناعية التي صاحبت نشأة تيارات سياسية واتجاهات فكرية بفعل الثورة الفرنسية والصناعية<sup>7</sup>.

**أوجست كونت**؛ يعتبر مؤسس علم الاجتماع فهو أول من أطلق عليه هذه التسمية، وقد عاش كونت في الفترة الممتدة بين (1798\_1857) وبهذا عايش أهم ثورتين في تاريخ فرنسا الحديث هما ثورتي 1830\_1948 وحدد موضوع العلم بأنه، دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس الأسلوب الذي تدرس به الظواهر الطبيعية. كما رأى أن الوضعية تمثل الأساس الذي يجب أن تركز عليه كل محاولات التنظيم الاجتماعي، للقضاء على الفوضى الاجتماعية التي تتمثل في الحركات النقدية التي كانت توجد في أوروبا في عصره<sup>8</sup>.

**كارل ماركس**: عايش هو الآخر فترة ليست بالقصيرة من تلك التي عاشها أوجست كونت وذلك بين (1818\_1883) تنقل بين ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وإنجلترا، الأمر الذي وسع ملاحظاته إلى جانب قراءته للتاريخ وتحليله واستيعابه، حدد موضوع علم

الاجتماع الأساسي بدراسة المجتمع الإنساني ككل تاريخي متغير من خلال دراسة القوانين الاجتماعية والاقتصادية، وبحث مختلف العلاقات الداخلية لجوانب الحياة الاجتماعية، وأما عن الموضوع الأساسي للبحث السوسولوجي الماركسي فيتحدد بالعلاقات الإنتاجية علاقات الملكية، ويتحدد الفكر الماركسي من مكونين أساسيين هما المادية التاريخية والمادية الجدلية.

إميل دوركايم: عايش فترة هدوء نسبي في تسعينيات القرن 19، حاول تفسير المجتمع من خلال التضامن الآلي والتضامن العضوي، ويحدث انتقال المجتمع من الآلي إلى العضوي بالكثافة الاجتماعية والتقسيم الاجتماعي للعمل، وأنماط الاتصال التي تيسر التلاحم بين الأفراد وبالتالي الاتفاق والاشتراك القيمين وبين البيئة الاجتماعية وما يحيط بها من عوالم<sup>9</sup> ليس هدفنا هنا عرض فكر كل عالم على حدى وإنما كيف فسر كل عالم الظواهر الموجودة في ظل الظروف الاجتماعية المحيطة به.

وهنا يمكننا التمييز بين موقفين أساسيين؛ تمثل الأول: في الوقوف إيجابيا مع النظام الاجتماعي القائم وبالتالي صناعة أفكار ومناهج وطرائق للوصول إلى بيانات علمية تدعم هذا النظام وتبرهن على سلامته، وهذا يكاد يكون موقف كل الرواد المؤسسين عدا واحد فقط هو كارل ماركس، فأوجست كونت كان وضعيا-والوضعية تعني الوقوف موقفا إيجابيا اتجاه النظام القائم-، أما دوركايم فأشار إلى أن علم الاجتماع يجب أن تكون له

فوائد علمية، دون تحديدها وإن كان يفهم ضمينا من كتاباته أن هذه الفوائد تتمثل في علاج المشكلات الاجتماعية التي تحافظ في النهاية على النظام القائم.

بينما موقف ثان تمثل: في يراه ماركس وهو على العكس تماما من الموقف الأول، فقد رأى ضرورة تغيير النظام، والذي يعني عنده التوجه نحو الإنسان وجعل غده أكثر رحابة وعدالة.<sup>10</sup>

فالملاحظ أن الرواد المؤسسين الأوائل كان لكل واحد منهم نظريته الخاصة لعلم الاجتماع، تتحدد من خلالها وظيفته العلمية والاجتماعية، وتتلخص من خلالها ما يطرحه هذا العلم من الجهتين النظرية والتطبيقية لهذا العلم.

## 2. علم الاجتماع في الوطن العربي:

ظهور علم الاجتماع في الوطن العربي كان له إطاره الاجتماعي الاقتصادي الخاص الذي نجمه في النقاط التالية:

- أن الاستعمار وما صاحبه من صور ودوائر للتبعية يكاد يكون قاعدة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر الذي سيطر على المجتمع العربي بأقطاره، محاولا طبع العلم والفكر بجانب أبعاد مجتمعية أخرى، بطابع يخدم مصالحه ويحافظ عليها.



- كان البناء الاجتماعي للمجتمع العربي، وهو الأساس في كل فهم وتفسير يعايش أنماط إنتاجية مشوهة عند نقطة أولية جدا في التحليل، ويمكن التمييز بين نشاطين إنتاجيين أساسيين زراعي ورعوي يعيش بجوارهما نشاط تجاري هنا وهناك.

وهو ما أثر على أعمال رواد العلم في الوطن العربي، حيث أن القضايا التي شغلتهم كانت متمثلة في إبراز طابع العلم وأهميته، وضرورة التخصص فيه وتمييزه عن غيره من العلوم الاجتماعية فلا تكاد تجد كتابا إلا وأفرد فصلا أو أكثر لتعريف علم الاجتماع وموضوعه وشرعيته العلمية، وبعد هذا انشغل معظم أفراد الرعيل الأول بالتدريس.<sup>11</sup>

أما بالنسبة للجزائر فتبقى المرحلة التأسيسية الأولى لهذا العلم مبهمة لعدة أسباب من بينها إهمال التأريخ من طرف المختصين، إضافة إلى استلاء الفرنسيين على الأرشيف وتعمد إتلافه، إضافة إلى عدم اهتمام السلطات بجمعه وتنظيمه.<sup>12</sup>

بينما يرى جمال معتوق أن الجزائر تنفرد بممارسة سوسيولوجية تختلف وتتميز عنها في كل من المغرب وتونس ذلك لما تتميز به من خصوصيات، كون الجزائر لها تجربة تاريخية وثقافية متميزة عن تلك التي مرت بها المنطقتين، والمتمثلة في نوعية الاستعمار الذي عرفته الجزائر وخاصة الدور الذي أداه المشتغلون بالعلوم الاجتماعية وخاصة علم الاجتماع في ظل التواجد الاستعماري، فهي كما عبر عنها محمد عابد الجابري في مقاله: "يقظة الوسعي العروبي في المغرب" بالمدرسة السوسيولوجية الكولونيالية في الجزائر هي المدرسة التي كان

من ورائها تأسيس العديد من المدارس والمستعمرات، هذه المدرسة الكولونيالية كانت رائدة في تلك الفترة وكانت تضم أكبر علماء الاجتماع والاثنوغرافيا والاثروبولوجيا... وهو ما جعلها تعطي صبغة خاصة تنفرد بها الجزائر<sup>13</sup>

أما مساك أمينة فجاء في كتاباتها عن السوسولوجيا في الجزائر؛ بين 1962 و1972 تكونت فئة من السوسولوجيين حسب النموذج السوسولوجي التابع للإطار الليبرالي للجامعة الفرنسية. وقد ظل التوجه الفرانكفوني للخطاب السوسولوجي قائما داخل الجامعة الجزائرية حتى عام 1971 حيث عني بالتنظير الذي يفتقر إلى الدراسات الميدانية الواقعية، كما تميز بالاهتمام بدراسة أعمال دوركايم، ويكاد يقتصر على النقل والتحصيل دون التأصيل والتحليل. فرغم الإصلاحات لم يتم التغيير المطلوب من خلال التقويم الشامل لما خلفته السوسولوجيا الاستعمارية، من حيث الممارسة البيداغوجية والبحثية، ومقتضيات فهم طبيعة التحولات والأحداث المستجدة حيث نجد الكثير من النظريات والتيارات الفكرية التي ظهرت على الأرض الأوربية انطلاقا من إشكاليات لها خصوصياتها قد نقلت إلى الجامعات العربية لتردد فيها بشكل آلي.

أما عن المواضيع التي ميزت هذه الفترة فكانت متمركزة حول الريف والتنمية الزراعية والخدمات الاجتماعية، أي كل ماله علاقة بنتائج الثورة التحريرية، أما في الثمانينيات فقد ترسخ علم الاجتماع من الناحية الكمية، حيث ارتفع عدد الدفعات والأساتذة، وعدد الأساتذة المناقشين لأطروحات الدولة، وبهذا أصبح الجانب المؤسسي لعلم الاجتماع قويا

في الساحة الأكاديمية وفرض نفسه كعلم قائم بذاته وتدعم من خلال البحث واللقاءات ونشر الأفكار، وبرزت ظواهر اجتماعية جديدة في مختلف المجالات، أما اليوم فقد تنوعت الاهتمامات وشملت مشاريع جديدة، فمع استمرار الدراسات الريفية واتخاذ صورة مستقلة نوعا ما عن السياسة أخذت ظاهرة الشباب والحركات الاجتماعية اهتماما واضحا.<sup>14</sup>

بينما جمال الدين معتوق ففي دراسته لعلم الاجتماع في الجزائر فهو يرى أن هذا العلم كان تطوره مواكبا للأحداث التاريخية والظروف الاجتماعية التي كانت في الجزائر، والتي قسم من خلالها علم الاجتماع في الجزائر إلى:

\* **مرحلة كولونيالية:** ويقصد بها تلك الدراسات والأعمال التي أجريت خلال المرحلة الاستعمارية والتي عملت على دراسة المجتمع الجزائري والتنقيب في بنياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وهي ممارسة قام بها أناس سوسيولوجيون من الاختصاص وآخرون خارجه. هذه الدراسات السوسيولوجية تنقسم إلى نوعين، نوع رسمي مخطط له من أصحاب وزارة الحربية الفرنسية، هؤلاء الباحثون عبارة عن عساكر ومرترقة جندوا لخدمة المشروع الكولونيالي، ونوع آخر يسمى بالسوسيولوجيا المحايدة لأن له نزعة أكاديمية إنسانية كأعمال جاك بيرك ولوكور وشارل أندري جوليان وآخرون<sup>15</sup>.

\* **علم الاجتماع من الاستقلال إلى يومنا هذا:**

وتجدر الإشارة إلى عدم وجود أية دراسة حول علم الاجتماع بالجزائر، وعدم وجود أي أرشيف منظم حول المراحل التي مر بها قسم علم الاجتماع بالجزائر، زيادة إلى غياب المبادرة من طرف المشتغلين بهذا العلم في الجزائر للقيام بحوصلة لكل المراحل التي قطعها هذا العلم، والذي يمكن إرجاعه إلى أسباب عديدة نذكر منها:

- مكانة هذا العلم في الجزائر.
  - القهر المؤسساتي المنظم والموجه ضد هذا العلم ومن يشتغلون فيه.
  - العقدة الدونية التي يشعر بها المشتغلون بهذا العلم.
  - عدم وضوح الرؤية لدى المشتغلين بهذا الفرع من فروع المعرفة.
  - الانقسامات والانشقاقات التي يعانيتها هؤلاء المشتغلون بهذا العلم في الجزائر.
  - التحيز الأيديولوجي والمصلحي لبعضهم على حساب هذا العلم.
- كل هذا جعل علم الاجتماع بالجزائر يتخبط في جو من الغموض والإبهام وهذا ما يزيد في حجم الصعوبات أمام الباحث المهتم بمثل هذا الموضوع<sup>16</sup>.

### 3. وظائف علم الاجتماع

اختلف الباحثون في تحديد الوظائف الأساسية لعلم الاجتماع، ويمكن اختصار وظائف علم الاجتماع في وظيفتين أساسيتين تتفرع عنهما وظائف أخرى:

**الأولى:** وظيفة علمية تعنى بتطوير العلم نفسه، والنقد الذاتي لمختلف الجهود التي بذلت على الصعيدين النظري والمنهجي بغية الوصول بالعلم إلى درجة أكبر من الكفاءة والدقة والوصول إلى قوانين اجتماعية.

**والثانية:** وظيفة مجتمعية وهي تعني جميع الأدوار التي يقوم بها العلم لمجتمع معين متدرجا من العطاء حتى الوصول إلى المجتمع الإنساني ككل، وهذه الوظيفة يمكن أن تندرج تحتها وظائف فرعية كثيرة تبدأ بفهم الواقع وتفسيره وتناول مشكلاته، والتخطيط لتناولها وعلاجها، سواء كانت هذه المشكلات فئوية أو قطاعية أو مجتمعية شاملة تشمل المجتمع على وجه العموم.

ومع أن الوظيفة الأولى تمثل مجال اتفاق كبير بين المشتغلين بالعلم في كل المجتمعات وعبر كل الأجيال العلمية، فإن الوظيفة الثانية هي الأكثر حساسية حيث فجرت كثيرا من القضايا والمواقف ودعت إلى إعادة النظر في العلم منذ نشأته وحتى الآن.

إن الإجابة عن هذا التساؤل تعني أولا دراسة الواقع وتشخيصه وتفسيره، وتعني ثانيا تقديم بدائل لتصورات التغيير، وتعني ثالثا العمل على إنضاج وعي الجماهير المشاركة في المجتمع من خلال وضعها على طريق التفكير العلمي وتبصيرها بما هو حادث حولها

سلبا وإيجابا، وتعني رابعا ضرورة المشاركة في صناعة القرارات وفي التخطيط المجتمعي وبدون الدور الأخير يصبح الدوران الأوليان موقوفين ويصبح الدور الثالث هو الممكن والمتاح إذا تجاوز الباحث آنيته وأنانيته وأضحى ملتزما أمام المجتمع والإنسان لأن علم الاجتماع هو علم دراسة الإنسان والمجتمع.<sup>17</sup>

وقد كان أمل الرعيل الأول من علماء الاجتماع الغربيين أمثال كونت وماركس ودوركايم وغيره... أن يجعلوا من علم الاجتماع علما يمد العلماء والباحثين بالأساس النظري لعلم تطبيقي شامل يساهم في حل كل أنواع الخلافات والمشاكل الاجتماعية، فعلم الاجتماع في رأيهم يمكن أن يستخدم في التطبيق العملي بطريقة علمية منظمة، ويطرق متعددة، وعلى مستويات مختلفة<sup>18</sup>.

ويقول مراد زعيمي أنه بعد اتضاح قصور ما طرحته الماركسية والوضعية على حد سواء في رسم مستقبل الحياة الإنسانية، نجد أن كثيرا من علماء الاجتماع الغربيين يقولون بأنه ليس على علم الاجتماع أن يكون سبيلا للإصلاح الاجتماعي أو طريقة للخدمة الاجتماعية أو منبرا لهداية الناس إلى سواء السبيل، أو تغيير المجتمع، وإنما عليه أن يكتفي بجمع أكبر ما يمكن من الحقائق والمعلومات عن الحياة الاجتماعية ويشيد النظريات وعلى ذوي السلطان أن يفعلوا ذلك بأنفسهم.

وإن كنا نسجل اختلافا وترددا بين علماء الاجتماع في تحديدهم لمهمة علم الاجتماع، يرى زعيمى أنه على عالم الاجتماع نفسه تقع مسؤولية المساهمة المباشرة في التوجيه والإرشاد إلى التغيرات المرغوبة، فحسبه أنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل وضع حدود فاصلة بين البحث الاجتماعي سواء كان ميدانيا أو نظريا وتطبيقاته العملية، فليس هناك من هو أقدر على فهم الحلول العملية للمشاكل المطروحة ممن قام بدراساتها وفحصها وتحديد أبعادها ويضيف زعيمى أيضا ونحن نرى معه ذلك أن هناك التزاما أخلاقيا على علماء الاجتماع التقييد به إزاء الإنسانية، وعلى عاتق عالم الاجتماع أيضا تقع مهمة تقويم النشاط الإنساني والسلوك الاجتماعي، وتبيان الظواهر السليمة والمرضية في المجتمع، من أجل ترشيده وعلاجه، فعليه أن لا يكتفي بمجرد الوصف والقياس لما هو كائن، فالحياة الاجتماعية حسبه ليست كالجماد والحيوان.<sup>19</sup>

وهنا نطرح التساؤل التالي: هل نجح علم الاجتماع في أداء هذه الوظائف أم لا؟

فحسب رأي كثير من الباحثين في علم الاجتماع فهناك هوة عميقة بين المشتغلين بهذا العلم، أي ما يقدمونه من أفكار ونظريات وحتى ما يقومون به من دراسات أميريقية وواقع هذه المجتمعات. بمعنى أن كل تلك الجهودات تبدو في كثير من الأحيان أنها هامشية لأنها لم ترقى إلى ذلك المستوى من التنظير الذي بإمكانه تحليل وتفسير المشكلات الاجتماعية مثل الأمية البطالة الفقر الانحراف والجريمة... هذا الواقع أصبح يعبر عليه حاليا بأزمة عالم الاجتماع عن واقعه أي جوهر اهتماماته الحقيقية<sup>20</sup>.

## لكن هل معنى هذا أن هذه الأزمة مست العرب دون الغرب؟

عن هذه الأزمة كتب "لوي ورت" في تقديمه للطبعة الإنجليزية من كتاب "الإيديولوجية والبيوتوبيا" الذي ألفه "كارل مانهايم" توضيح أهم أسباب ركود المعرفة الاجتماعية، وذلك حين ميز بين مجموعتين أساسيتين من العوامل:

الأولى: وتمثل في المحددات التي تفرض على العلم فرضا إكراهيا قسريا من خارجه أي علاقة علم الاجتماع بالنظام الاجتماعي الذي هو جزء منه.

والثانية: تشمل العقبات والصعوبات الناتجة من داخل العلم نفسه، أي تشير إلى حالة العلم نظرية ومنهجيا وموقفا من المجتمع.<sup>21</sup>

كما يذهب "نورمان بيرنهام" إلى أن علم الاجتماع الأمريكي المعاصر بالرغم من أنه حقق إنجازات وطور بعض الأساليب المنهجية والفنية فإنه من الناحية الاجتماعية لم يسهم في:

\_\_ الإقلال من اختلال المساواة في توزيع الثروة المادية وفي حيازة القوة.

\_\_ أن الباحثين انشغلوا ولا يزلون بالنظام الرأسمالي، إما بتبريره أو بتناول مشكلاته للحفاظ عليه والعمل على استمراره.



— إن العلاقة بين الباحثين في علم الاجتماع والجماهير لا تزال أسئلتها بلا إجابات مما أضعف الدور المجتمعي الشعبي للعلم.<sup>22</sup>

إذا كانت هذه هي نقاط الأزمة في علم الاجتماع الغربي، فإن الأزمة عندنا في الجامعات العربية أشد وطأة من هذا بكثير أهمها، أن علم الاجتماع عندنا من العلوم التي لا تحظى بمكانة عالية بين العلوم الأخرى بل وحتى من بعض الأساتذة داخل الاختصاص، فإذا كان الغرب يعتمدون على نتائج البحوث الاجتماعية ويثقون بها ولو جزئياً، فإن عندنا من لا يسمع بعلم الاجتماع.

فمشكلتنا إذن هي مشكلة جهل وعدم معرفة بالعلم من جهة، والقناعة بأهميته من جهة أخرى؛ فالمجتمع لا يقتنع بالأقوال وإنما يؤمن بالأفعال، ولأن علم الاجتماع عندنا يبقى حبيس الجامعة فمن الصعب جدا إقناع الآخرين به. لذا وكخطوة أولية وجب علينا كأساتذة جامعيين أن نخرج علم الاجتماع من الجامعة إلى المجتمع، لنعرف به وبدوره، لكن بصورة تطبيقية وليس نظرية، وإلا فلا داعي من إنشاء أقسام خاصة بعلم الاجتماع، إذا لم تساهم في حل المشاكل الاجتماعية التي يتخبط فيها أفراد المجتمع.

فأفراد المجتمع يتوقعون من علم الاجتماع أشياء كبيرة ومهمة، فهم لا يهمهم التمسك بالدقة المنهجية ولا أي نظرية أدق من الأخرى إن ما يهمهم هو خلق ظروف مواتية لبقائهم في عملهم وتفاعلهم وتعبيرهم عن إرادتهم وطموحاتهم وتطلعاتهم، فما ينتظره أفراد

المجتمع من علم الاجتماع هو خلق غد أفضل يخلو من المشاكل والأزمات، أو على الأقل كيف يواجه الأزمات.

في عام 1965 وفي نقده لعلم الاجتماع في مصر وهو في الحقيقة ما يمكن أن نطبقه على الموقف السوسيولوجي العربي بوجه عام ((إن لنا أن نتساءل بعد التغييرات البنائية التي حدثت في مجتمعا وامتدت إلى المفاهيم والقيم، أظل علم الاجتماع بصورته الحالية؟ أم ينبغي أن نهاجمه لتغييره، أو نعد له باعتباره أداة انهماجية بوضعه الحالي...؟ إن ما يأتينا من الغرب ليس كلاما نهائيا له طابع المسلمات، ولذلك يجب أن تكون لدينا القدرة الخلاقة، وان تكون لدينا شجاعة النقد البنائين، أن نهدم بناء قديما فقد مقوماته لنقيم آخر جديدا يعبر عن الطابع الجديد لمجتمعنا، وإن كان هنالك فرق بين منطلق العلم الذي لا يختلف عليه اثنان، وبين حقائق العلم، فيجب أن يكون لدينا الحقائق الخاصة بنا))<sup>23</sup>.

فقد أفضت تبعية علم الاجتماع كامتداد لصور أخرى من التبعية إلى هزال أدواره وانحساره في التدريس والتلقين والتواري خلف أسوار الجامعة فنذر إسهام الباحثين في أدوار العلم المجتمعية بدراسة الواقع والمشاركة في التخطيط له، والإسهام في إنضاج وعي المواطن بقضايا وطنه ومواطنيه، والموضوعات التي بحثت وتلك التي لا تزال مطروحة للبحث توضح مدى الابتعاد عن الموضوعات الهامة والمصيرية، وكيف يمكن أن يتم هذا بصورة العلم مهزوزة لمنتج تم في مجتمعات أخرى.

إذ يمكن لنا القول أن أزمة علم الاجتماع الغربي قد انتقلت إلينا دون أن نصنعها، وتبينناها حتى بعد أن بدأت الكتابات الغربية نفسها تدرك تماما فشل النظرية الليبرالية في دراسة التغيير سواء في المجتمعات الغربية أو النامية، وفي هذا يلمح دانيال شيروت إلى أن معظم التحليلات الأمريكية في الخمسينات والستينات تكشف عن بؤس وعقم واضحين في التفسيرات التاريخية، فقد فشلت في فهم كثير من الحركات الاجتماعية في أنجولا وموزنيق وغيرهما ومع هذا قد قبلناها ولا زلنا نعمل بها رغم قناعتنا بأنها ليست على صواب و أن بإمكاننا أن نصنع الأفضل لو أردنا ثم قررنا وطبقنا واجتهدنا.

وهنا نعود ونطرح سؤال هل بإمكاننا أن نخرج علم الاجتماع من الجامعة إلى المجتمع؟ وكيف ذلك؟

لا نريد أن نكون متشائمين أكثر من اللازم هناك العديد من الرسائل الجامعية والبحوث كانت عبارة عن دراسات ميدانية في العديد من المؤسسات الاجتماعية والخدمات والاقصادية التي حاولت معالجة مشكل معين، كن كان مصيرها رفوف المكتبة والغبار، فلم توظف نتائج تلك الدراسة\_ ونحن هنا لا نريد الخوض في قيمة الأعمال، فحقيقة هناك أعمال لا ترقى إلى التطبيق أو لا تقدم شيئا يمكن الاستفادة منه، لكن بالمقابل هناك أعمال جيدة يمكن توظيفها وهو ما نقصده هنا.

لكن هل ننتظر إلى أن يطلب منا أن نقدم نتائج بحوثنا، الأفضل أن نبادر نحن بعرض نتائج بحوثنا ونسهر على تطبيقها بأنفسنا والبحث عن أشخاص يدركون أهميتها ومتحمسون لتطبيقها، فالعلم ليس مجرد متعة وترف يتداول في الملتقيات والجلسات العلمية، بل له وظائف لا بد أن يؤديها وكلما كانت إنسانية كان العلم إنسانيا.

وهناك نقطة أهم وهي القناعة والثقة، لأنه من الصعب جدا بل من المستحيل أن تنجح في تقديم شيء لا تؤمن به، والثقة تعطينا الصبر والقدرة على المواجهة ورفض الاستسلام من أجل تحقيق هدفنا.

زد إلى هذا أنه كثيرا ما تقوم أقسام علم الاجتماع بعقد ملتقيات وطنية ودولية، وأيام دراسية، يحضرها نخبة من أساتذة الجامعات الجزائرية والدولية يطرحون فيها مشكل أو قضية اجتماعية محاولين تشخيصها وتحليلها وتفسيرها واقتراح البدائل وتقديم الحلول، لكن ما يلاحظ أن هذه الملتقيات لا يحضرها غير أساتذة الجامعة، لأن الغالبية لا يسمعون بهذا الملتقى أو بعد انتهائه بسبب نقص الاتصال بالمجتمع الخارجي، كيف أريد أن أقدم الحلول، ونحن داخل إطار الجامعة نناقش أفكارنا ونتبادل التوصيات فيما بيننا أليس الأجدر بنا أن نخرج إلى المجتمع.

فعنوان ملتقى عن التربية والإصلاح التربوي أو عن التحصيل أليس من الأفضل لنا لو اخترنا ثانوية أو متوسطة لإقامة الملتقى ووجهنا دعوات إلى المدراء والمفتشين والمعلمين، ولم لا الأولياء والتلاميذ.

أو إذا تعلق الأمر بقضية العنف لدى الشباب أو المخدرات اخترنا دار الشباب لعقد الملتقى أو أي مكان آخر، ألا يكون هذا أفضل بكثير، وبهذا نكون قد بادرننا إلى تقليص الهوة بيننا وبين المجتمع فنكون نحن من يذهب إليهم ويتقرب منهم ولا ننتظر أن يأتوا إلينا، أليس هدفنا خدمة المجتمع إذن لا بد أن نعمل جاهدين من أجل ردم هذه الهوة الموجودة بين الجامعة والمجتمع وإلا لا داعي من وجود علم هدفه خدمة الإنسان وهو لا يقدم شيئاً.

## الهوامش

- 1- عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، رقم 44، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998، ص. 17.
- 22- المرجع السابق نفسه، ص. ص. 14-16.
- 3- طلعت إبراهيم لطفي: مدخل إلى علم الاجتماع، دار غريب القاهرة، ص. 25.
- 4- محمد عاطف غيث: الموقف النظري في علم الاجتماع المعاصر، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1980، ص. 79.

- <sup>5</sup>-المرجع السابق نفسه: ص. 23.
- <sup>6</sup>- ياس خضير البياتي: النظرية الاجتماعية جذورها التاريخية وروادها، طرابلس، الجامعة المفتوحة، 2002، ص. 43.
- <sup>7</sup>- المرجع السابق نفسه: ص. 44.
- <sup>8</sup>- سمير نعيم أحمد: النظرية في علم الاجتماع، الطبعة الثانية، دار المعارف، الإسكندرية، ص. 56.
- <sup>9</sup>- عبد الباسط عبد المعطي: مرجع سبق ذكره، ص. ص. 68-82.
- <sup>10</sup>- المرجع السابق نفسه: ص. 18.
- <sup>11</sup>- المرجع السابق نفسه: ص. ص. 169-175.
- <sup>12</sup>- مساك أمينة: علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية بين البرامج الأكاديمية والواقع الاجتماعي، مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، دراسات اجتماعية وتربوية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الرابع جانفي 2009، ص. 91.
- <sup>13</sup>- جمال معتوق: علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا، ردمك، 2006، ص. 31.
- <sup>14</sup>- مساك أمينة: مرجع سبق ذكره، ص. ص. 91-124.
- <sup>15</sup>- جمال معتوق: مرجع سبق ذكره، ص. ص. 32-33.
- <sup>16</sup>- المرجع السابق نفسه: ص. ص. 31-32.
- <sup>17</sup>- عبد الباسط عبد المعطي: مرجع سبق ذكره، ص. ص. 17-18.
- <sup>18</sup>- مراد زعيمي: دراسات نقدية علم الاجتماع رؤية نقدية، جامعة منتوري قسنطينة، مخبر علم اجتماع الاتصال، 2004، ص. ص. 45-46.
- <sup>19</sup>- المرجع السابق نفسه: ص. ص. 46-47.
- <sup>20</sup>- يوسف سعدون: قراءة نقدية حول علم الاجتماع في الوطن العربي، مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة، دراسات اجتماعية وتربوية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد الرابع، 2009، ص. ص. 157-163.

- 
- <sup>21</sup>- عبد الباسط عبد المعطي: مرجع سبق ذكره، ص. 5.
- <sup>22</sup>- المرجع السابق نفسه: ص. 20.
- <sup>23</sup>- عبد الباسط عبد المعطي: مرجع سبق ذكره، ص. 191.